رحلة طموح..

سارة الليثي

هذه أنا..

أنا كل حاجة وعكسها..أنا ألف حاجة في بعضها..أنا عاقلة وهادية في وقتها..ومجنونة وشعنونة بعدها..أنا خجولة وعيني مغمضة..وعيني بجحة لو في الحق قُلتها..في لحظة بكون طموحة..متفائلة وبحضن الأمل..جوايا قوة تشق الحجر..وقادرة أغيَّر القدر..وفي لحظة تانية...بكون يائسة ومحبطة..قوتي بكلمة تهدها..وإرادتي أضعف من إنها تهزم ورقة بعجزها..أنا بحب الحياة وبكرهها بعدها وأرجع أحب الحياة تاني بمرَّها..والمر مهما زاد في قلبها هتفضل الحياة هي اللي بحبها..أخاف منها وأحبها..وأكرهها وأجري في حضنها..فمتلمش عليا لو كل لحظة بحالة عشتها..أصل أنا جوايا كل حاجة وعكسها..وبعيش كل لحظة بألف حالة في بعضها

سارة الليثي

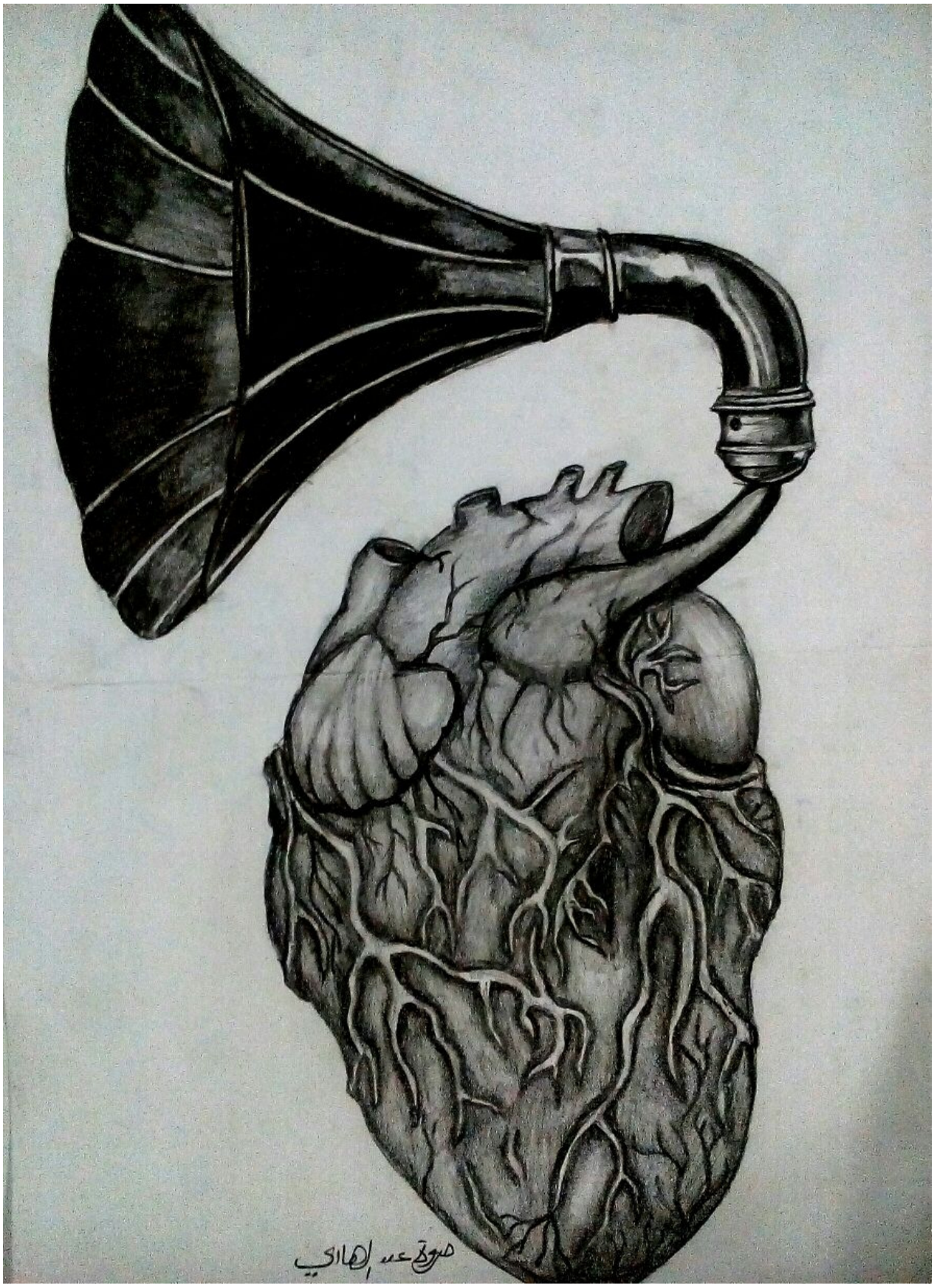
صورة عبد الهادي

رحلة طموح

استيقظتْ كعادتي كل صباح على صوت "أم كلثوم" تشدو:

يا صباح الخير ياللي معانا.. الكروان غنى وصحانا.. والشمس طالعة وضحاها..

اعتدت منذ طفولتي أن أستيقظ كل صباح على ذلك الصوت الشجي مُنطلقًا من مذياع قهوة عم "صابر" المجاورة لمنزلنا، حتى إذا ما طرأ طارئ على عم "صابر" ولم يفتح القهوة يومًا أو تأخر عن موعده، لا أستطيع الاستيقاظ بسهولة، وتُجهد أمي حتى توقظني للذهاب إلى المدرسة، مما اضطرها في النهاية لأن تضع لي مذياعًا خاصًا في غرفتي لتوقظني به كل صباح على أغنية "أم كلثوم"، وحتى الآن وبعد أعوام طويلة لازلت عندما أريد أن أستيقظ في الصباح لابد أن أضبط منبه هاتفي الجوال بأغنية "أم كلثوم" لأستطيع الاستيقاظ.

- اطفي الهباب ده!

كعادتها "عبير" -زميلتي في الغرفة بنزل الفتيات- تصرخ بي كل صباح لأغلق المنبه، وها هي الآن قد قطعت عليَّ حبل

ذكرياتي، في البداية كنا نتشجار كثيرًا حول هذا الموضوع، فقد كنت أعدها إهانة لا تغتفر لصوت "أم كلثوم"، واستلزم مني وقتها حتى أقتنع أن على الرغم من أن "عبير" ذوقها لا يتعدى "أوكا وأورتيجا" إلا أنها لم تكن تقصد أي إهانة لأي أحد، ولكن إصراري على أن أضع تلك الأغنية نغمة للمنبه الذي يوقظني في السابعة صباحًا بل واستمتاعي بالاستماع إليها لمدة دقيقة كاملة حتى يتوقف المنبه تلقائيًا هو ما كان يثير أعصاب "عبير" التي تود استكمال نومها بأمان دون إزعاج.

استغرق منا وقتًا طويلاً حتى نستطيع فهم بعضنا البعض وتكوين صداقة بيننا على الرغم من اختلاف أذواقنا، ولكني لا زلت أصر على وضع تلك الأغنية نغمة منبهي الصباحي، غير أني لم أعد أتشاجر معها عندما تصيح بي طالبة إغلاق ذلك المنبه، وكأي يوم خرجت من غرفتي متوجهة إلى المطبخ؛ لأرى ماذا تُعِد الفتيات للفطور وأساعدهم فيه.

- هتعملوا إيه على الفطار النهاردة؟
- هنعمل إيه يعني؟ كالعادة بيض وفول وجبنة.
- عايزين أي مساعدة؟

- ليه هو حضرتك مستنية نحضَّر احنا الأكل ونجيبهولك لحد عندك وإنتِ قاعدة ملكة في مكانك؟!

- طب أعمل إيه يعني؟

- اعملي اللي تعمليه، على الأقل تقدري تغسلي المواعين وتطلَّعي الطباق بره على الترابيزة أي حاجة!

اعتدت على كلام الفتيات بتلك الطريقة، لازالت تؤلمني طريقتهم ولكنني لم أعد أبالي وأصبحت لا أشكو لأحد من أحد، ولماذا أشكو إذا كان لا أحد يسمع من الأساس، فكل منهن لديها مشاكلها وإحباطاتها التي تفرغها على من حولها، وما من واحدة منهن لديها الاستعداد لتتحمل هموم ومشكلات الأخرى فما بها يكفيها بل ويفيض إذا ما وجدت أحد تفيض له ولكن لا أحد لنا ها هنا!

انتهت الفتيات من إعداد الإفطار وجلسن جميعًا يتناولن الإفطار معًا وهن يتبادلن الحديث والنكات، وبعد أن انتهين من تناول الإفطار ذهبت كل منهن إلى عملها كالمعتاد، توجَّهت أنا كالعادة إلى دار الأوبرا لأزاول تدريباتي المعتادة مع الكورس، لقد أتيت إلى القاهرة منذ عامين على أمل أنني سأصبح مطربة

مشهورة ولكن للأسف مضى عامان كاملان وأنا لا أزال عند نقطة البداية لم أتحرك شبرًا واحدًا منها، كنت أظن أن صوتي سيفرش لي طريقًا من الورود لأسيره بمنتهى السهولة.

ولكنني اكتشفت الحقيقة المرة: لم يعد الصوت الشجي هو السبيل للغناء بل أضحت هناك سبل عديدة لم يعد من ضمنها إطلاقًا روعة الصوت من عدمه، ولأصل إلى تلك الحقيقة صدمت مرات عديدة على أبواب المنتجين الموسيقيين والملحنين الذين كان سؤالهم دائمًا عن حجم التنازلات الأخلاقية التي قد أقدمها لهم ليفتحوا لي أبواب المجد والشهرة، ولم يسألني أحد يومًا عن إجادتي للغناء من عدمه ولم يحاول أحدهم سماع صوتي الذي أسعى لإيصاله للجمهور من خلالهم ولو لمرة واحدة من الأساس.

أحيانًا كثيرة يتسلل اليأس إلى نفسي وأتسائل عن جدوى بقائي في القاهرة وتضحيتي بأهلي ورضاهم عني لأجري وراء حلم كالسراب؛ فقد حاربت العالم كله لأجل ذاك الحلم الذي كلما خُيِّل إليَّ أنني اقتربت منه أجده كالسراب، أبعد ما يكون عني، لقد أحببت الغناء العربي الأصيل منذ نعومة أظافري، كنت أمُضي أغلب أوقاتي أستمع إلى غناء "أم كلثوم" و"عبد الوهاب"

و"فيروز" و"نجاة الصغيرة" و"فريد الأطرش" و"أسمهان" و"عبد الحليم حافظ" و"صباح"، ولكن "أم كلثوم" بالنسبة لي كانت القامة والهرم الذي لا أظن أنه سيتكرر يومًا ما.

كنت أجلس مع عائلتي يوميًا في الثانية عشرة مساءً جوار المذياع نستمع إلى إحدى حفلات "أم كلثوم" على إذاعة الأغاني، ويسترجع والداي معها الذكريات، فقد حضر كلٌ منهما عدة حفلات مع أهله وقتها، كانت عائلاتهما تسافر خصيصًا إلى القاهرة في الخميس الأول من كل شهر لحضور حفلة "أم كلثوم"، ونادرًا ما فاتهم إحدى حفلاتها، وكثيرًا ما اكتشفا أنهما حضرا نفس الحفلة وتضاحكا على ذلك وظنا أنهما قد تلاقيا في صغرهما.

كنت أجلس بين والدي أستمع إلى "أم كلثوم" وإلى ذكرياتهما معها قبل أن أخلد إلى النوم، فكان آخر ما يطرق سمعي وأول ما أستيقظ على سماعه يوميًا هو صوت "أم كلثوم"، كنت أتباهى بين زميلاتي في المدرسة بحبي لـ"أم كلثوم" في الوقت الذي كانت لا تطيق الواحدة منهن الجلوس ساعة كاملة وربما أكثر للاستماع إلى إحدى أغاني "أم كلثوم"، وكنت دائمًا المتبارية الأولى في الحفلات المدرسية والعائلية بغناء أغاني "أم كلثوم" لأحظى بتشجيع وانبهار الجميع.

ولكن عندما كبرت وصرَّحت بحبي للغناء ورغبتي في امتهانه والالتحاق بمعهد الموسيقى العربية في القاهرة لدراسته فوجئت برفض عارم وهجوم شديد لأكتشف بين ليلة وضحاها أن الغناء حرام.

لازلت أذكر ذلك اليوم الذي اندلعت به نار غضب والداي في بيتنا عندما أخبرتهما أنني أريد السفر للقاهرة لألتحق بمعهد الموسيقى، كانت تلك أول مرة يرفع فيها والدي يده عليَّ، ولم تُنصفني أمي يومها أو تحاول منعه، وكأنها مُقتنعة تماماً بما يفعله، حاولت أن أناقشهما أن أقنعهما بالعقل أو يقنعاني هما، لِمَ لَمْ يكن الغناء حراماً عندما كانوا يجتمعون يومياً لسماع أغاني "أم كلثوم" في الإذاعة؟! لِمَ لَمْ يكن حراماً عندما كانوا يذهبون لحضور حفلات "أم كلثوم" مع أهاليهم ويسافرون خصيصاً ويقطعون المسافات الطويلة لحضورها؟!

لِمَ لَمْ يكن حراماً عندما كانوا يتباهون بجمال صوتي وحفظي لكل أغاني "أم كلثوم"؟! لِمَ لَمْ يكن حراماً عندما كانوا يطلبون مني في كل حفلة أو اجتماع عائلي أن أغني لهم مما غنَّت "أم كلثوم"؟! أفجأة أصبح الغناء حراماً؟! وكيف يكون الغناء حراماً وقد خلق الله الكون يغني؟! أليس الله هو من خلق الطيور

بأصواتها المختلفة تشكل لحنًا غنائيًا رائعًا؟! أليس صوت خرير المياه وارتطامها بالصخور وصوت الأمطار وقت هطولها تحيى الأرض البور يعزف نوتة موسيقية ربانية رائعة؟!

أوليس صوت الرياح وهي تداعب أغصان الشجر تُشكل معزوفة لحنية غاية في الطرب؟! ألم يكن نبي الله "داوود" يترنَّم بتسابيحه وابتهالاته لله بما عُرِف إلى الآن بمزامير داوود، ألم يكن الإنس والجن بل والحيوانات تجتمع لتطرب من ترانيمه؟! ألا يتبارى مقرئوا القرآن في إبراز أصواتهم والتغنِّي بآيات الله؟! أولم يحثنا رسول الله ﷺ على ذلك قائلاً في صحيح البخاري: «**ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن**»؟! فكيف بعد ذلك كله يُحرِّمون الغناء ما لم يتفحش بقول أو يحض على حرام؟!

ألم يكن للمغنيين والموسيقيين والشعراء منزلة رفيعة عند خلفاء المسلمين في كل العهود؟! أوليس علم الموسيقى في الأساس يعتمد على القواعد والنظريات التي وضعها علماء الإسلام -"الفارابي" و"زرياب" و"أبو الفرج الأصفهاني" و"الكندي" و"الموصلي"- في الموسيقى؟! فكيف إذًا صارت الموسيقى والغناء حرامًا بعد قرون من رحيلهم؟! أسئلة كثيرة لم أجد لها جوابًا شافيًا عندهم، فقط ما وجدته كان التعنُّت

والرفض القاطع لامتهاني الغناء وكأن الغناء سيجلب لهم العار ويفقدهم هيبتهم في المجتمع، رفضوا أي نقاش أو أي محاولة إقناع وكأنهم يتحصنون بما توارثوه عن محاولة التفكير.

كنت أصغر من أن يكن لي حرية الاختيار، كنت أصغر من أن أتحمل عواقب العصيان، حاولت الوصول معهم لحل وسطي يُرضيني ويرضيهم؛ اقترحت عليهم دراسة الموسيقى بكلية التربية النوعية في محافظتنا بصعيد مصر؛ وافقوا ظنًا منهم أن هذا قد يُشبع حبي للموسيقى والغناء وأنني سأكتفي فيما بعد بالعمل كمدرسة موسيقى وأنشغل بذلك عن حلمي في الغناء أو أشبعه بالغناء في الحفلات المدرسية، بينما كنت أظن أنني خلال فترة دراستي بالكلية سأستطيع إقناعهم بحلمي عندما أصقل موهبتي بالدراسة ويرون بأعينهم تفوقي، ولكن آمالي تلك تحطمت على صخرة الواقع!

بعد تخرجي عرض عليَّ أحد أساتذتي السفر إلى القاهرة للتدريب في الأوبرا لأجد طريقًا لي في عالم الغناء من هناك، كدت أن أطير فرحًا عندما عرض عليَّ ذلك، ولكن نار الغضب اندلعت ثانيةً في بيتنا عندما أخبرت والديَّ بذلك، لم يرفع والدي يده عليَّ ثانيةً ولم تقاطعني أمي ولكن ما فعلوه كان أسوأ، فلقد

خيَّروني بينهم وبين المُضي قِدمًا في تحقيق حلمي، لم تشفع لي دموعي وتوسلاتي، فلم يكن أمامي إلا أن أختار أن أسير وحدي على الدرب دون دعم أو دعوة طيبة تُذلِّل لي الصعاب.

حتى من وهبته قلبي لم يستطع فهمي، لم يُقدِّر موهبتي ولم يمنحني حقي في الحلم، خيَّرني هو أيضًا ما بين حلمي وبين زواجنا، لقد رأى أن وقوفي على المسرح للغناء انتقاصًا لرجولته وإهانةً لكرامته، أخبرني أنه لم يكن يناقشني من قبل ظنًا منه أنني سأنضج يومًا ما وأتخلى عن تلك الأحلام الطفولية وأعي أن هناك مسئوليات من المنتظر مني القيام بها، لم أغضب منه ولم أندم على فراقه ولكن آلمني حقًا أنني أحببت يومًا رجلاً أنانيًا بقدره.

لم يُشجَّعني أحد البتة في تحقيق أحلامي، إلا أنني أصررت على المضي في طريقي وضحيت في سبيله بكل غالي ونفيس، ظننت أنني عندما أصل إلى هدفي دون أن أُضحي بأخلاقي وقيمي سأثبت لأهلي أنني كنت على حق وسأجعلهم فخورين بي، ولكن طال الطريق ولم أصل لشيء بعد، حتى بدأ اليأس يدب في قلبي، أشتاق كثيرًا لحضن أمي أرتمي فيه وأشكو لها قسوة الحياة.

ربما إن اليوم هو يوم حظي، ربما أخيرًا استجابت دعواتي، كنت في الأوبرا كالعادة أغني مع الكورس في إحدى الحفلات،

وبعد انتهاء اليوم، لم تكن لديَّ الرغبة في العودة إلى النزل في ذلك الوقت؛ دخلت إحدى القاعات، ظننت نفسي وحيدة لا يسمعني أحد، وقفت أغني باندماج إحدى أغنيات "أم كلثوم" الرائعة:

لسة فاكر قلبي يديلك أمان

وألا فاكر كلمة هتعيد اللي كان

وألا نظرة توصَّل الشوق والحنان

أنهيت الأغنية ووجدت من يصفق لي بحرارة؛ نظرت نحوه فوجدته الملحن والمغني الشهير "محمد يوسف"، لم أدري ماذا أفعل وتسمَّرت مكاني حتى اقترب مني يُسلِّم عليَّ محييًا ومعلنًا عن إعجابه الشديد وانبهاره بصوتي، سألني: اسمك أيه؟

- سمية محمد محمود.

- سومة؟

أومأت برأسي في خجل، نعم فقد كان ذاك اسم الدلع الذي يُطلقه عليَّ والداي تيمنًا بـ"أم كلثوم"، لقد سمياني "سمية" خصيصًا حتى يناديانى بذلك الإسم، فقد كان من الصعب أن يُسمياني "أم كلثوم" كان سيبدو اسمًا كبيراً لطفلة صغيرة؛ فاختارا لي اسم "سمية" حتى يناديانى بـ"سومة".

- إنتِ صوتك رائع.

- لا، أنا كنت بس....

- شششششششش، بجد إنتِ غنيتي أحسن مني أنا شخصيًا!

- حضرتك بتجاملني أكيد!

- لا، أنا مبهزرش ولا بجامل في حاجة تخص الغنا والموسيقى، إنتِ نفسك تبقي مغنية مش كده؟

- مين قال كده؟

- إنتِ، نظرة عينك وهي بتبص على صورة "أم كلثوم" على الحيطة وإنتِ بتغني أغنيتها كانت زي نظرة الطفل اللي بيبص للقمر وعايز يلمسه، لدرجة إنك محستيش بوجودي، النظرة دي قالت لي كل حاجة.

- كل الناس بتبص للقمر ونفسها توصله إيه المميز في كده؟

- البداية، كل الناس بتبص للقمر وبتحلم بيه، لكن مش كلهم بيحاولوا فعلًا يوصلوا ليه ويلمسوه بإيديهم، إنتِ عندكِ الإرادة اللي تخليكي توصلي بس محتاجة حد يزقك.

- إيه اللي سمعته في صوتي مسمعهوش حد قبل كده؟! أنا حاولت كتير بس محدش رضي يديني فرصة!

- عشان كده أنا هنا؛ عشان أديكِ الفرصة دي.

دارت في رأسي خيباتي المتلاحقة وكيف انتهى بي الحال في كل مرة قابلت فيها منتجاً أو ملحناً ما هاربة من نظرات وتلميحات يقشعر لها بدني؛ فبادرته قائلة بنظرة شك: أنا مش من البنات إياهم.

ضحك قائلاً: وأنا مبقولش الكلام ده لبنات من إياهم.

- آسفة، لكن على رأي المثل: "اللي اتلسع من الشوربة ينفخ في الزبادي".

- تمام يبقى أشوفك بكرة.

أعطاني بطاقته، وسلَّم عليَّ راحلاً، لم أكن أعي ما حولي من الفرحة، لم أكن أعلم إذا ماكنت أحلم أم أن ما حدث حقيقة، ظللت أنظر طويلاً للبطاقة غير مصدقة، لم أنم ليلتي، وفي الصباح الباكر توجهت إلى مكتبه، كان جادًا في شأني، وجدته قد قرر أن يُطلقني في احتفالات رأس السنة الجديدة، كان قد نظَّم لي جدولًا حافلاً للتدريب طوال الشهر المُتبقي، اختار لي أفضل الكلمات ووضع لي أرقى الألحان، أمضيت شهرًا حافلًا بالتدريبات والتسجيلات وأنا لا أزال غير مصدقة لما يحدث.

بدأت أخبار إطلاقي تستحوذ على معظم الأخبار الفنية، الكثيرون ينتظرون سماعي بفارغ الصبر، لا بد أن أخباري قد وصلت لأهلي، لا أدري بم شعروا حين رؤيتي؟ هل تعرَّفوا عليَّ؟هل رأوا في ابنتهم التي ربوها ومكثت بينهم زمنًا طويلًا؟ هل أدركوا أنني لم أتنازل عن أخلاقي وقيمي لأصل لما أنا عليه الآن؟

الآن أقف أمام المرآة أستعد لحفلي الأول، أرتدي أبهى فستان، وعلى الرغم من سعادتي البالغة إلا أنني أغالب دموعي، فكم كنت أتمنى أن يكون والديَّ معي في ذلك اليوم، أن يكونا إلى جواري يشدا من أزري ويُلقيا على مسامعي كلمات التشجيع، حاولت التماسك لأصعد إلى المسرح وأغني لذلك الجمهور الذي انتظرني بفارغ الصبر وانتظرته أنا عمرًا ليسمعني، ومن يدري فقد يخترق صوتي جدار الغضب ويكسر حواجز الكبر ليجمعني بأهلي يومًا كما جمعنا دومًا صوت "أم كلثوم"!

و أهو ده اللي صار!